العادة ونتائجها

بقلم جبرائيل ضومط استاذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كفتين

(تابع ما قبله)

لا يخفى انّ الارادة لها دخلٌ في ترتيب هذه التأثرات بعد ان تقع واحضارها لدى النفس لتقابل بينها وتأمل في علاقتها ونسبة بعضها من بعض فيكون لها من هذا القبيل دخل وتاثير من جهة المعتقدات التي يحسبها البعض اضطرارية . وبناء على ما لها اي للارادة من الدخل في هذا الترتيب ونظم تلك المؤثرات في سلاسل يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً صحيحاً وفق علاقاتها الحقيقية ونسبها الصحيحة بعضها من بعض يبتني القول انّ الانسان عبد المؤثرات والاحوال المحيطة به . ثم ان انتباه الارادة لهذا الترتيب في المؤثرات الخارجية ونظمها في سلاسل تعلق فيها المسبّبات بالاسباب وفقاً للحقيقة موكول الى العادة فاذا زاولت الارادة فعلها هذا مدةً تهيأ الجهز المخصص لهذا الترتيب حتى يصير فيه ذلك من قبيل البداهة فيكون منة عند تاثير المؤثر الخارجي انه يضع اثرهُ في موضعه الملائم وياضمهُ الى ما يشابههُ من المؤثرات السابقة فلا يشوش المعتقد الصحيح ولا يدفع النفس للعمل كما تدفع الآلة الميكانيكية عند عروض المؤثر وطروّه . وبموجب هذا يعلل عن اختلاف فعل المؤثر الواحد في شخصين فانهُ اعني المؤثر قد يسوق الشخص الواحد كما تسوق الريح السفينة نُشرَ قلوعها وغفل رُبّانها او نام بين ان الآخر يكون مثله مثل الرُبان الخبير المستيقظ فانهُ يحل قوة الريح ويُسيّر مركبه في النتيجة التي توصله الى الغاية المطلوبة

وهنا قد انتهى بنا البحث الى بحث آخر غايتهُ في انهُ هل ينتهي بنا ما يجهد انفسنا في النهوض عليهِ من العوائد المستحسنة ان من قبيل الدأب على الاشغال العقلية او تهذيب العواطف والانفعالات عند حدّها المنظور فقط من الفوائد التي تفيد بها هيئتنا الاجتماعية مدة حياتنا وذلك بواسطة التعليم ونشر الافكار في الجرائد العلمية وتأليف المؤلفات المختلفة ام تمتد الى ما وراء ذلك والراجح الثاني فانّ عوائدنا هذه او المثل اليها ينتقل عنا الى من ياتي بعدنا بالوراثة وهذا ما نتطا ل الآن للبحث عنهُ وبيان ارجحيتهِ فنقول

لا يخفى ان بين العادات الفكرية وبين خصوصيات الهيكل الانساني تعلقاً وارتباطاً تامين سواء كانت تلك الخصوصيات فطرية او مكتسبة بحكم العادة ومن المشاهد ان

تلك الخصوصيات قد تنتقل بالوراثة فينتقل معها اذن ما بينها وبينه من التعلقات الفكرية علاقة وارتباط في امزاج ويعزز ما ذكرنا انّ كثيرًا من الخصوصيات العقلية والادبية تظهر احيانًا في الابناء في احوال معيّنة لا يمكننا معها نسبة ظهورها الى مؤثر آخر يطرأ بعد الولادة كما يشاهد في كثيرين من الابناء الذين ربوا ايتامًا من كلا الابوين ومع ذلك فاخلاق اباتهم واميالهم العاقلة ظهرت فيهم ظهورًا لا ينكرهُ الاّ المكابر ولا ينسب هذا الى سبب آخر طرأ عليهم بعد الولادة واذا كان ذلك كذلك فاقرب ما يكون ان ننسب الامر الى قوة التكوين المودوعة في النطفة الاصلية من ان لها دخلاً في تكييف المجهّز الدماغي حال نموّهِ وتكاملهِ لان ينشأ على شكل معين واستعداد مخصوص كما ان لها دخلاً في كيفية نموّ بقية اجزاء الجسم وتكاملها على هندام معين . وعلى مقتضى ذلك التكيّف في مجهّز الولد الدماغي (الذي هو آلة العقل) وشبهِ بمجهز ابيهِ يكون ان تنشأ اخلاقهُ واميالهُ العاقلة مشابهةً لهذهِ التي في والديهِ فيظهر عنها من الافعال ما هو مشابهٌ لما ظهر منها في والديهِ قبلهُ عن طريق الفطرة

ومَن تأمل في الناموس الطبيعي العام من ان المولود يجيء على شاكلة والديهِ لا يستغرب هذا الرأي وله من المشاهدات عليهِ اعمّ على هذا الناموس ما هو من الوضوح بمكان فان الاجناس والانواع تجيء افرادها على مثال جنسها او نوعها في سائر خصوصياتها المقوّمة لها طالما انّ المؤثرات الخارجية المكيفة لها باقية على ما كانت عليهِ وكذلك ما كان من الانواع التي يمكن تتبُّع ما نشأ فيها من الخصوصيات تبعًا تاريخيًّا يصل بها الى الفرد الذي ظهرت فيهِ تلك الخصوصيات فان خواصها هذهِ تنتقل بالارث الى مواليدها . وثبوت انتقالها لا يكاد يختلف في شيء او ينقص في شيء عما يكون في خصوصيات الاجناس والانواع الاصلية . وعليهِ فمن التحكم المحض ان نقول بعدم انتقال خصوصيات العيال او الافراد الى اعقابهم من بعدهم لكن هنالك فارقًا في ان خصوصيات الاجناس والانواع اقبل من خصوصيات العيال او الافراد للتنوّع اذا اختلفت عليها المؤثرات الخارجية من بيئةٍ ومناخ وغير ذلك وهي كذلك اشد رسوخًا واستحكامًا من الثانية فان خصوصيات الافراد لا تكون راسخةً في بنيهم رسوخ خصوصيات الجنس بل اقل طارئٍ قد يقضي بزوالها منهم دون خصوصيات النوع ولا تستحكم تلك الخصوصيات على الغالب الاّ اذا تكررت في الاعقاب اجيالاً فانها بعد ذلك يصح ثبوت انتقالها راجحًا كل الرجوح وهذا لا يُنكر لانّ كثيرًا من العيال تشهر بخلق او ميل فتراهُ ثابتًا في اعقابها ثبوت ملامحهم واقطاعهم يظهر فيهم وان اختلفت بهم البيئة والتهذيب عمّا كانا سابقًا

ومما يخصّ بالذكر في الوراثة انّ الصفات العامّة التي يشترك فيها الابوان تنتقل في الاعقاب على التساوي في الغالب وامّا الخاصّة باحدهما فتميل الى فريق من الابناء دون الآخر وفي الغالب ان ما كان من خصوصيّات الام يظهر في جانب البنات وما كان من خصوصيّات الاب ففي جانب البنين وقد يعكس الامر نادرًا

واختلف الباحثون في خصوصيّات ايّ الوالدين تتغلّب في الابناء على خصوصيّات الآخر على انّهم لم يتوصلوا الى نتيجة قاطعة من هذا القبيل والمرجّح انّ في ذلك دخل لاعتقاد فضل احدهما على الآخر فاذا اعتقد الاب فضل خصوصيّة في الامّ على خصوصيّة فيه جاءت الابناء اميل الى جانب الام في تلك الخصوصيّة والعكس بالعكس وعلى ذلك فيشارك الابناء في ما تشارك فيه الاباء وينزعون في الخصوصيّات الى جانب دون الثاني وهو الجانب المعتقد فضله الاّ اذا نظر الابوان احدهما الى الآخر نظرة المساوي فعندها ينزع فريق منهم الى جانب الاب وآخر الى جانب الام وفي الغالب البنون للاب والبنات للامّ كما لمعنا

واذا التفتنا الى المشاهدات رأينا في الغالب انّه حيث تسود صفات الاب العاقلة والادبيّة على صفات الام بحيث لا يكون من الام الاّ ان تلحظ من زوجها هذا السموّ عليها تنزع الابناء في خصوصياتهم الى جانب الاب حتى وفي الملامح والاقطاع الظاهرة وبعكس الامر اي اذا لحظ الاب مثل هذا السموّ والفضل في زوجته عليه تنزع الابناء الى جانب الام واذا حدث ان كلاًّ منهم اعجب بخصوصيّة في الآخر تنزع الاولاد الى تلك الخصوصيّات المعجب بها واشترك البنون والبنات فيها على التساوي وظنّ بعضهم انّه اذا اختلف الوالدان في الاطباع والسجايا جاء الابناء في اختلاف عن كليهما كما يجيء من اتحاد اكسيد ما واحدي القواعد مركب يخالف في خصوصيّاته كليهما لكن هذا الظنّ لا يزال تحت ظلمات من الريب والخفاء ولا يصح معها القطع بشيء ولا ترجيحه . ولنرجع الى ما نحن بصدد من تأثير العادة وانتقالها بالوراثة فنقول مرّ معنا ان عوائد قوم اذا رسخت اجيالاً متعاقبة لما تقتضيه رسوخ بيئتهم واحوال معاشهم اصبحت العادة في الآخر مبلاً راسخًا في البنية وانتقلت بالوراثة الى الاعقاب كما يشاهد في ابناء البدو والقوم الرحل ربوا صغارًا بين الحضر ولم يعرفوا من احوال آبائهم شيئًا فانهم متى كبروا ظهر فيهم حبّ التنقل واستصعبوا من الاحوال الحضرية ما لا يستصعبه اترابهم من ابناء الحضر الذين شبّوا بينهم وكل ذلك لم يتعلموهُ ولا حصل لهم بالاكتساب بتربيتهم بين اهل الامصار والقرى ولا يعلل عن

ذلك الاّ تي ان عادات آبائهم هذه رسخت فيهم على طول الايام فصارت مثلاً او غريزة تتوارث في ابنائهم ينزعون اليها ويرون من انفسهم حبها لغير سبب مني وصلوا سنًّا معلومًا وهذا لا ينكرهُ الاّ المتعنّت او الجاهل ومن المعنا اليوم في الكلام عن الخصوصيات الفطرية ولكن من المشاهدات ان العوائد في الاباء قد يظهر الميل لها في البنين وان لم تتكرر اجيالاً وذلك في كل عادة حصل معها اخيرًا انحراف في الغاذية فاكسبت المعتاد مزاجًا خاصًّا فان هذا الانحراف قد يظهر في اول الاعتياد ويستحكم اذا انتقل عنهم او ثلاثة بل ويزيد في الابناء عما كان في الاب الاول حتى يصعب معالجتهُ والتخلص منهُ ولو اتخذت لذلك كل التحفظات وكل المداراة الصحيّة ومثل هذا كمن يعيشون في الاماكن الرطبة ذات الهواء الفاسد ويلزمون حالة السكون وعدم الرياضة فان اعتيادهم كل هذا قد يحدث فيهم انحرافًا في الغاذية عن حالتها الصحيّة لكن قد لا يكون هذا الانحراف يشعر بهِ في بادىء الامر الاّ ان ينتقل عن المعتاد الى غيرهِ وفي هذا اذا ولد على البيئة التي كان والدهُ عليها كان الاستعداد فيهِ لهذا الانحراف خفيًّا فيستحكم لاقل زمان بعد ولادتهِ وتظهر فيهِ آثارهُ واذا استمرت البيئة ونوع المعاش زاد الانحراف قوة واستحكامًا ثم في بنيهِ من بعدهِ حتى يرسخ في انسالهم على اشدهِ فيصبح فيهم تراثًا لا يزول بعدها ولو زالوا عن بيئتهم الاولى وشبّ التراث على ان ما ذكرناهُ قد يخفى الاّ على الخاصة فلا يتنبه لهُ العامّة

اصلاح المدارس

او اسلوب جديد للتعليم

طالب الحقيقة يأخذها اينما وجدها سواء جاءهُ بها الشرقي او الغربي وسواء رآها مقرونة بحلى البلاغة والبيان او عطلاً من الحلى ولبس عليها شيء من صنعة انسان. وقد علمنا بالخبر والخبَر ان سمو ولي النعم خديوينا المعظم ودولة رئيس نظارهِ وعطوفة ناظر المعارف العموميّة ساعون نحو غاية واحدة وهي نشر المعارف واصلاح المدارس لكي تأتي بهذه الغاية على اسهل سبيل

واصلاح المدارس لفظ وجيز ولكن تحتهُ معانٍ كبيرة وغايات سامية سعى اليها اكبر رجال العلم والسياسة منذ اكثر من مئة سنة ولم يزالوا يسعون سعيًا حثيثًا